# جمال الدين القاسمي

( ١٢٨٣ ـ ١٣٣٢ هـ )

## ثقافتـــه العامة

روى الإمام القاسمي في ترجمته لنفسه مصادر العلوم الأساسية التي كانت عدة طالب العلم في ذلك العصر ، والتي قرأها على مشايخه . فالمقصد الأصلي عند علماء الدين هو خدمة الشريعة ، بدراسة الكتاب والسنة وفهمها ، والعمل بتعاليمها . فكان طالب العلم يبدأ بحفظ القرآن الكريم ، منذ الطفولة المبكرة . ثم يأخذ بأطراف العلوم الأخرى تباعاً ، وفقاً لتوجيه أستاذه ، ولاستعداده الشخصي . وكان لا بد لفهم الكتاب والسنة من اتقان علوم أخرى ، كاللغة والنحو والصرف والأصول والبلاغة والبديع والبيان وغير ذلك . ولهذا كان كل ما عدا الكتاب والسنة يسمى علوم الآلة ، أي أنها آلات لفهمها .

درج الإمام القاسمي على الطريقة نفسها ، ثم أخذت الملكة الأدبية تنمو لديه بتوجيه من والده رحمه الله ، وباستعداده الشخصي . فأخذ بالاطلاع على أمهات كتب الأدب ودراسة بعضها دراسة تعمق وإتقان . ثم دفعه ولعه بالاطلاع ، وغرامه بالمطالعة الى اقتناء معظم ما أنتجته المطبعة العربية في عصره ، سواء أكان ذلك من مطبعة الجوائب في القسطنطينية أم المطابع المصرية أم المغربية أم الهندية أم الشامية أم غيرها .

ولعل أوضح عنوان لثقافته العامة مؤلفاته ومكتبته الخاصة التي ما زالت محفوظة حتى اليوم ، والتي بدأ بتأسيسها جده المرحوم الشيخ قاسم ، والتي ضمت



هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كثيراً من المخطوطات ووسعها أبوه ، ثم أضاف اليها هو نفسه ما استطاع اقتناءه من مخطوط ومطبوع .

ولم يكن لرجال الدين في عصره أي اهتمام بغير كتب الفقه والآلة . أما الإمام فقد صرف اهتمامه الى جميع أنواع المعرفة التي أخذت في الانتشار ، وعزم على أن يتعلم في شبابه وكهولته ما فاته تعلمه في صغره .

ففي مكتبته الخاصة كتب شتى ، لم يخل واحد منها من تصحيح أو تعليق أو إشارة الى قراءته على أحد الاختصاصيين . فالى جانب كتب التفسير والحديث والفقه واللغة والتصوف والأدب والتاريخ والأصول وغيرها ، ترى كتب الفلسفة القديمة والحديثة ، وكتب الاجتماع ، وكتب الرياضيات القديمة والحديثة . وقد رأيت في مكتبته أنه قرأ أحدها على المرحوم صادق النقشبندي كما وجدت كتاباً في الرياضيات ، مطبوعاً على الحجر ، اسمه شرح أشكال التأسيس لموسى قاضي زاده ، صححه على نسخة شيخه الشيخ محمد الخاني والمقروءة على شيخه الشيخ محمد الطندتائي ، وذلك عام ١٣٠٨ ، وكتب الجغرافيا ، وقد قرأ أحدها على المرحوم عبد الوهاب الانكليزي . وكان كل من النقشبندي والانكليزي أصغر منه سناً ، ومن شباب الجيل الذين أخذوا العلم في المدارس الحديثة العالية .

أضف الى ذلك رغبته في الاطلاع على الدراسات القانونية الحديثة ، التي ألفت في مطلع هذا القرن ، وأخرجتها المطابع المصرية ، فترى في مكتبته « مقابلات » وهو أحد الكتب الذي قارن الشريعة الإسلامية بشرائع اليهود ، والقوانين الفرنسية الحديثة .

ولم تخل مكتبته من كتب الفرق الإسلامية ، كالشيعة والزيدية والمعتزلة والظاهرية وغيرها وأخذ عنها في تآليفه ما وجد فيه تأييداً لفكرته ، أو تقوية لطريقته . ورد على بعضها في بعض مؤلفاته .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كما أنها لم تخل من كتب الديانات الأخرى ، كاليهودية والنصرانية [1] . ففيها مجموعة قاربت مئة كتاب ، قرأها كلها ، ودرس مضامينها ، وانتفع بكثير منها لتأييد آرائه وأفكاره .

ومن الآثار الواضحة لثقافته العامة ، مؤلفاته العديدة . فقد ألف في مواضيع نادرة ومتعددة . ويكفي أن تلقي نظرة على أسماء الكتب التي ألفها ، سواء أكان في صباه أو في كهولته ، لترى من هذه الأسماء ، شغف الإمام بفنون المعرفة وألوانها ، ورغبته الواسعة في تناول العلم والإحاطة فيه ، لو أن الإحاطة ممكنة . فالى جانب مؤلفاته في التفسير والحديث والأصول ، ترى كتاباً في تاريخ دمشق ، ورسالة في الجن ، وكتيباً في الشاي والقهوة والدخان ، ومقالة عن القلب ، وسفراً في دلائل التوحيد ، ومباحث في أحكام الشريعة في الجماعة المتماثلة بالواحد ، وكتاباً في الآداب والأخلاق ، الى غير ذلك مما تراه واضحاً في عناوين كتبه وأسمائها .

وترى آثار ثقافته العامة في هذه الكتب نفسها أيضاً ، وتعجب لهذا الشيخ الذي عرف قبل أكثر من نصف قرن ما هي الاشتراكية ، وما مدلولها وما معناها . وكان ذلك في زمان ما أظن أن في البلاد الشامية كلها ، لا بل وفي العالم العربي ، أكثر من أفراد معدودين قد سمعوا بالاشتراكية ووعوا معناها . اسمعه يقول [2] :

« ان العالِم لما أخذ الله عليه الصدع بالحق ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وأن لا يخاف في الله لومة لائم ، كان معرضاً من أعداء أنفسهم ، وعبيد أهوائهم ، للشنآن والنبز بالألقاب ، فتراهم ان وجدوه يميل للنظر في

---

(١) في مذكرة عام ١٣٢٤ ـ ٢٠ جمادى الأولى = ١١ تموز ١٩٠٦ : ( وأرسل لي في النهار الشيخ طاهر الجزائري عدة كتب من كتب النصارى هدية ) .

(٢) الفتوى في الاسلام ص ٦٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأدلة على الأحكام ، والوقوف على مآخذ المذاهب والأقوال ، وتحري الأقوم والأصلح ، بدون تعصب لإمام ، ولا تحزب لآخر ، نبزوه بالاجتهاد ، وسموه ( مجتهداً ) تهكماً ، مع أنه بذلك لم يقم إلا بواجبه .

« وان أبصروا ميله لعلوم الحكمة والرياضيات ، وتشويقه لاقتطاف ثماره سموه ( طبيعياً ) .

« وان رأوا حثه على البذل والانفاق في سبيل الله ، ودعواه الموسرين للعطف على البؤساء ، لقبوه اشتراكياً . . . . . »

ولو قرأت كتابه « دلائل التوحيد » ، لرأيت فيه حصيلة حسنة من علوم الفلك والجغرافيا والحيوان والنبات والجيولوجيا [١] . وينقل عن الفارابي بحثاً فيرى أنه قد استعمل كلمة ( اثولوجيا ) فيصححها في الهامش ويقول [٢] : كذا في الأصل ، وصوابه ( تهئولوجيا ) ومعناها علم الإلهيات .

ويوم ألف في موضوع الجن رسالته الشهيرة « مذاهب الأعراب وفلاسفة الإسلام في الجن » ، لم تَفُتْهُ الاستعانة بطلابه الذين أتقنوا الفرنسية والانكليزية ، فنقلوا له - على ما يظهر - ما جاء في معجم لاروس وفي دائرة المعارف البريطانية ، ما جاء فيهما تحت كلمة « جن » [٣] .

ثم يؤلف كتابه « إرشاد الخلق الى العمل بخبر البرق » ، فيجعل خاتمة ( في طرف تاريخية ولطائف أدبية ) ، يبحث فيها عن « التلغراف » [٤] ومعناه ، واشتقاقه من اللغة اليونانية ، وأول من استعمل الكهرباء في المخابرة عن بعد ،

---

(١) ص ٤٨ وغيرها .
(٢) ص ٦٤ .
(٣) ص ٤٧ - ٤٨ .
(٤) ص ٧٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكذلك « التلفون » ثم يحيل المطالع الى دوائر المعارف والمعاجم . ولا يغيب عن ذهنه أن يشير في بضعة أسطر الى ( التلغراف اللاسلكي ) الذي كان حديث العهد بالظهور ، يوم وضع هذا الكتاب ، حيث لم يمض على تجاربه الأولى أكثر من ثلاث سنوات .

ويحدث أن يصاب عام ١٣٢٠ بمرض « البواسير » ، فيتألم ، ويدفعه ألمه الى البحث عن هذا المرض بحثاً علمياً ، ويضع في ذلك رسالة معروفة سماها : « ما قاله الأطباء المشاهير ، في علاج البواسير » التي قال عنها الأستاذ الدكتور عزة مربدن عميد كلية الطب وأستاذ علم الأدوية وفن المداواة ، بعد أن اطلع عليها : « رسالة جامعة لكل ما يريد الباحث معرفته مما قيل عن هذا المرض قديماً وحديثاً . ولئن كانت الرسالة لم تتضمن من الأدوية ما عرفت تأثيراته في الأيام الأخيرة ، فلأن المؤلف رحمه الله لم يلحق عهد المُرْديات ، وعهد النهضة الطبية الحديثة . ومع ذلك فان الرسالة تظل تحمل قيمتها العلمية والأثرية ، فضلاً عما تحمله بين طياتها من معاني الدأب ، والدقة في البحث ، والحرص على الاطلاع . . . . . »

ويبدو له أن يؤلف كتاباً في « شرف الأسباط » ليؤكد فيه أن الاتصال من ناحية الأم ، هو كالاتصال من ناحية الأب ، لا فرق بينهما من الوجهة الشرعية ، ويروي أدلته من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين ، والأئمة ، ثم يضيف الى هذا كله ما قاله علماء ( البيولوجيا )[1] ـ علماء الحياة ـ من موافقة الأولاد لوالديهم في بعض الأوضاع الجنسية ، والصفات النفسية . . . .

ويعقد في كتابه « تعطير المشام ، في مآثر دمشق والشام » فصلاً عن « الزراعة في الشام والذرائع لاصلاحها » ، فتراه يشير الى السمادات الكيماوية

(١) ص ٤٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأنواعها : الفسفورية ، والبوتاسية ... والى ضرورة استعمال الآلات الميكانيكية في الحرث والحصاد ، والى الآفات والأمراض والحشرات الزراعية وطرق مكافحتها [١] ....

ويؤلف كتاباً يسميه « جوامع الآداب » ، فيتحدث فيه عن ( أدب النائب في مجلس المبعوثين [٢] ) . فترى في هذا البحث من معاني الديمقراطية ، ما لم يكن معروفاً ولا مألوفاً في ذلك الزمان ، فالنائب « لا يطلب بين خزائن النقود ، ولا من وراء سجوف النعمة ورغد العيش ، فان من ترفع عنك لا يهبط اليك » .

ولا يفوته حين يشير الى صفات النائب أن يشترط تضلعه في علم الحقوق ، ومعرفته لحركة المجالس النيابية عند الأمم الراقية ، وإدراكه علائق حكومته بحكومات أوربا ، وما نالته منا من الامتيازات [٣] ، وأن يكون قادراً على الاستخراج من كتب السياسة والإدارة والقضاء باحدى اللغات الأجنبية .

ويدرك ببصيرته النافذة ما للمخترعات الحديثة من خطر في تطوير المجتمع ، وما ينتظر لها من تقدم وارتقاء فيعلن أن « ما ظهر من التلغراف هو قطرة من بحر ما سيظهر في العصور التالية من المكتشفات والمخترعات ( ويخلق ما لا تعلمون ) مما فيه مرتفق للناس ، ومنتفع لهم ، وخدمة لعامة طبقاتهم [٤] ... »

ويضيف الى هذا ضرورة الاستفادة منها فيقول : « فاذا لم تطبق أمورها على الأصول المقررة بالاستنباط أو القياس ، فهل نجمد في الدين ، ونخالف طريقة المتقدمين والمتأخرين ، ونضيق ما وسعه الله من الفهم والاستنباط أبد الآبدين [٣] . »

---

(١) تعطير الشام : ج ٣ ( مخطوط ) .
(٢) ص ١١٢ .
(٣) يلاحظ أن هذا البحث كتب في ظل الحكم العثماني .
(٤) إرشاد الخلق ص ٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولم يقف رحمه الله عند حدود كتب الشريعة واللغة والأدب والتاريخ ، وإنما تعداها الى كتب القوانين الحديثة وشروحها ، والمبادئ التي أخذت بها ، فيستشهد بقانون التجارة وشروحه ، وقوة المراسلات ـ منها البرق ـ في الاثبات بين الخصوم [١] .

ولا يتردد في تقرير كروية الأرض ، في وقت كان الناس يرون القول بها كفراً [٢] .

ويؤلمه جهل المفتين ، فيدعو لا الى ضرورة احاطتهم بعلوم الشريعة فحسب ، بل الى وجوب معرفتهم بالعلوم الرياضية ، فيعقد لذلك فصلاً هاماً في كتابه « الفتوى في الإسلام [٣] » .

ومن مشاكل العالم الكبرى في العصر الحديث « التمييز بسبب العنصر أو العرق أو اللون » وقد استأثرت هذه المشكلة بأبحاث الكثيرين من العلماء في الشرق والغرب ، كما كانت وما زالت موضوعاً رئيسياً من مواضيع المؤتمرات والهيآت الدولية [٤] . وقد تعجب حين تعلم أن القاسمي قد عالج هذا الموضوع عام ١٣٢١ – ١٩٠٤ فقرر أن « منشأ هذه الخرافة استعباد الزنوج ، وأن من أحنى قامة الذل والهوان ، نهض يطالب بحقوقه المهضومة ، وينافش ظُلاَّمَهُ الحساب [٥] . »

ويرى أن « السياسة مصايرة المكاره ، ومسايرة الأهوال والمصاعب ،

---

(١) إرشاد الخلق ص ٥٧ .
(٢) دلائل التوحيد ص ٣٥ .
(٣) ص ٥٠ .
(٤) راجع قرارات مؤتمر الحقوقيين الآسيويين الافريقيين المنعقد في دمشق بين ٧ – ١٠ تشرين الثاني ١٩٥٧ ص ١٥٦ وقرارات مؤتمر التضامن الآسيوي الافريقي المنعقد في القاهرة .
(٥) دفتر أواخر شوال ١٣٢١ ( مخطوط ) الورقة ٣٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وركوب الأسنة ، وتحين الفرص والظروف . وأن أصارع القوي وأنا الضعيف ، وأكافح الكمي وأنا الأعزل .[1] »

وقد أولع عام ١٣٢٤ = ١٩٠٧ بفقه اللغات ( فيلولوجيا ) ، وأخذ يبحث عن أصول بعض الألفاظ المعرّبة من لغاتها الأصلية : اليونانية ، والسريانية ، والعبرية ، والفارسية ، والقبطية ، والألمانية ، والإيطالية والفرنسية وغيرها . وقيد في مفكرته اليومية[2] لذلك العام بعض دراسته في هذا الموضوع الفني ، مشيراً أحياناً الى مصدرها .

وعلى الجملة فقد كان رحمه الله آخذاً بأطراف المعرفة من كل سبب ، لم يمنعه عن ذلك مخالفة في الدين أو المذهب أو العقيدة أو الطريقة . وأتاحت له حريته الفكرية أن يجول في آثار عقول الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم ، يحدوه الى ذلك رغبته في خدمة الشريعة ، وهدفه في الإفادة والاستفادة .

ظافر القاسمي

(١) المصدر نفسه الورقة ٤٢ .

(٢) ٢١ ـ ٣٠ ذي الحجة ١٣٤٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net